صدمة الحياة ...

قصة بقلم عبد الرحمن البيك

احسست على حين غرة بوازع في اعماقي يحثني على المضي الى دار البلدية ، وكانت دراجتي العادية التي اعارتني اياها مراقبة المصالح الخاصة في قسم الدائرة الفنية ، تنهب الارض نهبا وكانها عالة بالخلاف الذي نشب بيني وبين ورشة احد المتعهدين .

لكم اعجبت من نفسي واحببتها في الوقت ذاته ، لانني كنت في تلك اللحظة مع كل شيء ، فالوازع الذي ذكرته اينع بعد ان كان مجرد نظرية ، كما ان الشعور بالمسؤولية كان يؤكد لي اكتمال شخصيتي تجاه الامور العامة . ورغم انني في الثامنة عشرة من عمري الا انني استطيع التاكيد بان الحوافز التي تؤهل المرء عادة لان يصبح رجلا شديد المراس متوفرة لدي .

لم اثق على نفسي وقتئذ فحسب بل احببت دراجتي الجامدة لانني وجدتها وقتئذ تندفع نحو دار البلدية بكل مروءة ، انها ايضا تريد مساعدتي ، فيا لاخلاقها العظيمة !

كان ثمة شيء ينغص مشاعري ذلك هو زحمة الطريق ، ان وضع الناس في باب جنين يشبه الى حد ما جمهورا متكتلا في صورة زيتية ، ومع ذلك فقد اظهرت فني في توجيه الدراجة لاتحاشي الاصطدام بعربات الباعة المتجولين الذين اقترنت صورتهم في مخيلتي بصورة الذباب ، بلا سبب مسوغ .

في تلك اللحظات الحرجة تذكرت نصيحة والدي ، حينما اخبرته ليلة امس بانني حصلت على وظيفة مؤقتة خلال العطلة الصيفية ، وانني استلمت دراجة عادية من اجل الوصول الى ورشة العمل في اخر حي الكلاسة . كانت نصيحة والدي نهيا عن الحرام ، غير ان اشد ما اثار مخاوفه هو توقعه حدوث الاصطدام ، لذلك رأيته يشدد علي تنبيهاته ويوصيني ان اتحاشى صدمة عاجز او طفل ، بل ان مخاوفه هذه تجسدت الى حد انه انقلب علي واخذ يعنفني لانني اخترت هذه الوظيفة المؤقتة التي لا اصلح لها ، ووقفت امي بجانبي وراحت تعدد مآثري والتوفيقات التي حصلت لي في حياتي . ولكن ابي اصر على رد الدراجة لانه كان يشعر في نفسه بان اصطداما سوف يقع فيؤدي الى تأذي نفسي ، وقد جادلته كثيرا وبرهنت له انني اصبحت رجلا وانه من الجبن انكار ذلك .

تذكرت هذا الذي حدث ليلة امس وانا ممسك مقود الدراجة اتحاشى الاصطدام . كان هذا مما نغص مشاعري المتوفزة التي اكتشفت امرا غريبا يجري بين عمال ورشة العمل التي اخذت بمراقبة اعمالها صبيحة هذا اليوم . وكانت الاعمال التي استدعت ريبتي لا تجري طبقا للتوصيات التي افهمني اياها رائف بك رئيس الديوان .

اخذت اؤكد في نفسي وانا في اشد حالات التعب بانه يجب الوصول الى البلدية لفضح اولئك الرجال مهما كلف الامر ، فهم ما داموا لم يهتموا لوجودي فانه من الواجب ان ابرهن لهم عن سلامة نفسي ، بل انني مع صغر سني استطيع ايقافهم عند حدود القانون . ورغم ان ابا جان هددني وقال لي بانه سوف يقرض رأسي اذا تكلمت ، الا انني لم اذعن له ، وكذلك وقف الياس امامي وهو يضم في راحة كفه بضع مئات من الليرات السورية وهو يقول لي – خذ هذا المبلغ البسيط انه ثمن فنجان قهوة – ولقد نهرته بانفعال وقلت له (انني لا اشرب قهوة .. اسمع يا ابا جرجي اذا لم تنفذوا العملية بحذافيرها فسوف افضح امركم لرئيس البلدية) قلت هذا وقد توقعت ان يعيد الياس النظر بخطته الطائشة ولكنه ويا للاسف لم يتأثر من لهجتي ، وقد ساورني شك في ان رنة صوتي الرفيعة التي تدل على كوني مجرد مراهق يحاول التمسك بحبال المثالية ، لم ترهبه ، وهذا مما زاد غيظي ونقمتي .

هذا ماحدث في الساعات الاولى من تسلمي عملي ، ولقد كان عزائي الوحيد هو استيقاظ الوازع الخفي في صدري ، انه بالفعل كان هبة اسبغت على نفسي بعض الغبطة لانها حملتني على ان اتخطى الصعاب في سبيل افشاء امرهم . وحتى وحيد لم يستطع بتوسلاته ان يثنيني عن عزمي .. فقد ابتعدت عنه بدراجتي وهو يقول لي « اسمع يا مليح الشيخ .. اسمع يا استاذ ، بامكاننا ان نتفاهم .. » .

كانت تلك الصورة المخزية تختلط بصورة والدي وهو يحاول اقناعي بالعدول عن اشغال هذه الوظيفة . وحاولت فصل هذه الصور عن بعضها لان والدي لم يكن يهدف من محاولته رسم طباع الناس امامي ، انه كان يركز اهدافه نحو الدراجة ، فلقد كان يخشى ان اصدم شخصا او امرأة او بائعا متجولا فانتهي الى امر محزن . من اجل ذلك لم اعبأ بنصيحته التي اغدقها علي ليلة امس رغم ان الوضعية في سوق باب جنين توحي باصطدام مرتقب ، لان الناس فيه يشبهون انواع المسليات في كيس ورق ، وقلما يستطيع المرء ان يجد لنفسه طريقا في ذلك الخضم .

خففت سرعة الدراجة الى اقصى حد ولكنني وجدت سرعة نفسي تزداد حتى انها كادت تصل الى درجة الاحتراق ، ولكن الامر ظل متعادلا. وكانت اصبعي على الجرس ويدي الاخرى على المكبح وعيناي تقتحمان دربا ضيقا بين الناس ولساني يحذر ويؤنب ويوبخ وجبهتي من ناحيتها تنضح بالعرق منفذة اوامر شمس باخلاص .

كان كل وجودي مسخرا في سبيل الوصول الى البلدية للايعاز الى مديرية المراقبة كي ترسل لجنة تفتيشية سرية لمراقبة الوضع ولوصف الحالة الراهنة . ولكن طيف والدي كان لايني يظهر امام عيني ليذكرني بكلماته .. « انك مازلت صغيرا ، وانك لابد وان تصطدم بالدراجة .. سنرى »

وقررت ان اشعر والدي بالخجل وان يكن هذا ليس لائقا ، الا انني سابرهن له عن رجولتي ، وانني بقبولي هذه الوظيفة سأفيد الامة ، فانا اثق بامانة نفسي ، وهذا ربح غير مباشر يشبه اية ضريبة غير مباشرة تدخل خزانة الدولة ، ان اخلاص الافراد هو دخل قومي ، بل هو اغزر الموارد الطبيعية ، وهذا هو ما اريد ان ابرهن عليه . ان رئيس البلدية سوف يثني على مجهودي بل وسوف يطلب مني قبول الوظيفة بصورة رسمية ، وبذلك اكون بصدقي قد نبوأت مركزا في دوائر الحكومة عن جدارة لا صلة للحظ فيها ، فلو انني قبلت ثمن فنجان القهوة الذي قدمه لي الياس لفاتتني الوظيفة . ثم ان نيل الوظيفة بهذه الطريقة شيء ثانوي بالنسبة للفائدة العامة التي سوف تظهر اثارها في المجتمع. انني اؤمن بالتربية الذاتية ، ولا يمكن لشيء ان يفسد شيئا اخر ، وان المثل العامي عن التين الذي ينضج بعضه لايمكن تطبيقه على الناس لان الناس يختلفون عن التين . ان كل امرىء اذا سيطر على شهوات نفسه وعمل بوازع الخير النابع من اعماقه صلحت الامة وتنظف المجتمع .

كانت تلك التحليلات تستولي على نفسي وانا اجهد في شق الطريق بين الباعة الذين كادوا ان يصموا آذاني بصراخهم ومشاكساتهم .

ولما أن انفتحت امامي ساحة باب الفرج التقطني شرطي وزعم انني مخالف قانون السير .. وقلت له « حسنا .. ماذا تريد ان تفعل . » فقال « أريد ان أفرغ لك الاطارين .. » وسمتني انفاجعة كنها جمرة النار ورجوته الا يفعل لانني في مهمة وان المهمة هي كذا .. وكذا ... ولكنه لم يتاثر بل تمسك بنصوص نظام السير وقال بانه لا علاقة لنظام السير بورشة الياس . ومما ان اتم كلماته حتى سمعت صوت خروج الهواء من البز .. انه يشبه صفير الهواء في ليلة هوجاء ...

واخذت ادفع الدراجة نحو اقرب مكان للتصليح فمشرت على دكان لتاجير الدراجات عند منتزه المنشية . فنفخت الاطارين ثم تابعت طريقي.

حينما وصلت بداية طريق جادة الخندق .. وجدت هناك تنظيما خاصا لايتخذ الا في اوقات زيارة رؤساء بعض الدول الاجنبية للبلاد . كان الطريق خاليا من المارة وسكة الترام وحدها ممتده وكانها نهر رقيع يلمع تحت الشمس . والناس على الارصفة تشرئب اعناقهم ليشاهدوا ضيف البلاد البانديت نهرو . وكانت ثمة دراجات نارية وسيارات خفيفة تذرع الجادة الحاوية في سرعة تفوق السرعة المحددة في المادة الثامنة عشرة من قانون السير .

وكانت دراجتي قد بدا عليها التردد في اقتحام الطريق الذي تحرسه على الجانبين ارتال من الجنود .. ولكنها مالبثت ان اقتحمت الطريق وكانها لم تعبأ برجال الشرطة .. وانطلقت الصفارات في اثري ولحقني احدهم على دراجته النارية .. وتحول الموقف الى مايشبه التمثيلية .. وصفق الناس لهذه المطاردة ...

ولما عدت الى مكاني برفقة الشرطي .. قبض على معصمي شرطي اخر ضخم الجسم وقال لي :

ـ أانت حيوان ... الا ترى ان الجادة مخصصة هذا اليوم للبانديت نهرو ؟.

وقلت له وانا احاول الافلات .

ـ يا اخي ... دعني ، انك تكاد تفصل كفي عن ذراعي .

ـ انك حيوان ...

ـ من هو الحيوان ... ولماذا انا حيوان ... الا تدري انني في مهمة ؟!

ـ ما هي المهمة ؟ هل انت من رجال المباحث ؟

ـ كلا ...

ومسحت العرق الذي اخذ يتصبب من ذقني ثم اردفت :

ـ كلا .. انما انا موظف في البلدية ..

ـ طز ...

ـ لماذا تحتقرني ؟

وحصلت بيني وبينه مشادة حضر على اثرها بعض زملاء الشرطي وهم يتبخترون .

وهنا قال لي الشرطي بعد ان التف حوله زملاؤه :

ـ لانك محتقر ...

ـ كيف تقول هذا ؟ انني سوف اقاضيك .. لانك اهنت موظفا ..

والتفت الى زملائه وقد انتفخ من شدة الغيظ :

ـ اسمعوا الى هذا الصعلوك ... انه يريد مقاضاتي ! الا تعرف من انا ؟

وتقدم مني شرطي برتبة عريف ... وشدني من اذني .. وقال لي :

ـ يظهر ان جسدك يحكك ... هيا الى القسم لنفركه لك ..

ـ انت .. انت مادخلك ؟

ووقفت بالقرب منا سيارة جيب نزل منها احد المفوضين وشق طريقه نحونا وبوادر الاهتمام والقلق بادية على وجهه وقال :

ـ ما خطبه ؟

فاجابه احدهم :

ـ مشاغب ...

وقال اخر :

ـ انه قال الفاظا نابية تمس المسؤولين .

وصرخت بصوت مدو :

ـ هذا كذب وبهتان .. اقسم انه كذب وبهتان ..

واسكتني المفوض برفق واخذ يربت على كتفي وكانه امام طفل في الثامنة ..

ـ حسنا .. حسنا يابني .. ماذا تريد ؟

فقلت له بغيظ وجراة :

ـ انا لست ابنك .. انني رجل .. وانني موظف في البلدية .. وانت لو تعرف جوهر المهمة التي احملها الى رائف افندي لساعدتني في الوصول الى البلدية باقصى سرعة ممكنة ..

ـ بالفعل .. فانا اقدر موقفك .. وهانذا ابغي مساعدتك .. هيا اسلك هذا الطريق .. انت ترى ان زقاق بوابة القصب يؤدي الى الجديدة ، والجديدة تؤدي الى عوجة الكيالي ، وهذه تؤدي الى تراب الغرباء .. وتراب الغرباء تؤدي الى باب النصر .. وباب النصر يؤدي الى سوق النحاسين وهذا يؤدي الى جادة جبانة الحوار ، وهذه تؤدي الى باب الحديد ، ومن هناك يمكنك ان تنفذ الى البياضة ، ومنها تسير في زقاق ضيق يؤدي بك الى البلدية ..

فقلت له متعجبا :

ـ يالها من نصيحة طويلة .. اتعرف متى اصل ؟

ـ ومتى تعتقد ؟

اعتقد انني اصل الى البلدية بعد ساعة ونصف ، وفي هذه المدة تكون ورشة الياس قد اختصرت العملية وبلعت نصف مقدار المواد الاولية المقررة .

ـ هذا ليس من اختصاصي .. وانني انصحك ان تمضي هذه المدة في ذلك الطريق الطويل بدلا من ان تمضيها في النظارة .

حينما بارحت مكاني . شعرت بان حماستي كانت زيادة عما يجب ان تكون ، واحسست بان انفعالي لا موجب له طالما وان العقبات كانت تؤخرني . ثم ان تصورا جديدا طرا علي ، وهو الرعب والشفقة على الفشاشين الذين اريد ان اودي بهم .. انهم ايضا قبل كل شيء اناس

عدد « الاداب » الممتاز

تقدم « الاداب » في مطلع آذار (مارس) ١٩٦٢ ، على مألوف عادتها كل سنة ، عددا ممتازا في موضوع :

الاتجاهات الفلسفية في الأدب المعاصر

وسيكون حافلا بالدراسات العميقة التي تتناول بحث مختلف النزعات الفلسفية كما تظهر في الآثار المعاصرة للاداب العالمية .

وهم بلا شك مدفوعون الى ارتكاب الغش باسباب مختلفة يشترك فيها جميع الناس في المجتمع ، لان المجتمع المدني معقد ، والتعقيد يستوجبُ انتاج رجال معقدين ، امثال الياس .. وابو جان .. وابو وحيد ... وبطرس .. واحمد سمان المقاول .. فلماذا ننزل القصاص بالفشاشين المباشرين ونتغاضى عن عقاب المساعدين اللامباشرين الذين يخلقون جو الغش والانحراف . انه من الخطأ الوشاية باولئك المساكين ، لان المجتمع في الحقيقة يعاقب بعضه آليا . فالذين يساعدون على خلق جو الغش ينتجون اناسا يغشونهم بالذات بصورة عفوية .

لم يكن هذا التحليل مقنعا لنفسي لان شعوري بالغيرية مالبث ان تضاءل امام الانسانية المفرطة الكامنة في اللاشعور ، اذ سرعان ماقلت في نفسي « وكيف سأتبوأ مركزا لائقا في البلدية ان لم اظهر اخلاصي في الخدمة للمسؤولين » ؟

من اجل ذلك تغابيت عن مشاعر الرقة والشفقة على عمال الورشة، وقررت ان احقق مثالياتي مادمت في بداية حياتي .. سأمضي بلا وجل لاحقق ذاتي ، واذا كان الياس وجماعته سوف يشردون فان ذلك لن يكون الا عقابا على فعلتهم التي شجعهم عليها المجتمع بمجموعه .

دخلت حانوت ثابت دلال في محلة الجديدة وامسكت بسماعة التلفون وقلت :

ـ رائف .. بك .. رائف .. بك . انا مليح الشيخ .

وصدمت لجوابه :

ـ مليح الشيخ .. ومن تكون ؟

ـ هل نسيت ؟ انني مليح الشيخ الموظف في دائرتكم .

ـ لا اذكر مثل هذا الاسم .

ـ تذكر جيدا .. هل نسيت كيف وقفت امامك يوم امس في الساعة الواحدة قبل الانصراف واخذت توصيني بمراقبة ورشة الياس وتلح علي في تطبيق التوصيات التي وضعها المهندس ، هل نسيت ؟

وقال بصوت بطيء :

ـ آ .. آ .. تذكرت .. حسنا ماذا حصل ؟؟.

الاشتراكية والديموقراطية

صدر حديثا

دراسات معمقة عن مفهوم الاشتراكية وصلتها بالديموقراطية ، وعن الديموقراطية كوسيلة لتحقيق اهداف القومية العربية ، وعن التربية الديموقراطية.

تأليف

الدكتور عبد الكريم عبد الدائم

الثمن ٢٠٠ قرش لبناني — منشورات دار الاداب

ـ اسمع .. أسمع يا رائف بك . . ان الياس عرض علي مبلغا من المال مقابل سكوتي ...

ـ الياس حاول ذلك .. ولماذا لم تقبل الرشوة ؟

ـ وكيف اقبلها ياسيدي ؟ هذا مخالف للقانون ..

ـ اعرف .. اعرف .. ولكنني اقصد من اجل الايقاع به .. لابأس ... لابأس .. سأتخذ الخطوات اللازمة ..

ووضعت السماعة فرحا لهذا الحدث الذي سيحول مجرى حياتي ، ثم ركبت دراجتي واخذت اتلوى في الازقة ..

قابلت رائف بك فوجدته منفعلا ، مرتبكا لهذه الحادثة التي كشفتها له ، وقد عبر لي عن حزنه واسفه لحدوثها في هذه الفترة التي نتمتع بها بالحكم الذاتي ، وشرح لي كيف انه قابل منذ فترة رئيس البلدية ووصف له الحالة المؤسفة ، وكيف ان رئيس البلدية اهتم بالامر واستدعى مفتشا واوصاه بانزال اشد العقوبة بالمسؤولين عن ورشة الياس ..

وشعرت بنفسي تمتلىء زهوا وخيلاء لهذا الاثر الذي صنعته للامة، وكانت خواطر رائف بك صورة طبق الاصل عن خواطري ومثلي العليا ، فهدأ خفقان قلبي وعمرت نفسي بالطمانينة لان الرجال الصالحين لايزالون يزخرفون الدوائر والمصالح .. وان المرء يستطيع ان يراهم كما يرى النجوم في ليلة تتلاحق في سمائها السحب . وحينما اردت مبارحة الغرفة اخذ يربت على كتفي وكانني تلميذ في مدرسة ابتدائية ويشكرني على صنيعي ويؤكد لي بانه سوف ينقلني الى الديوان بعد اسبوع . ثم صافحني وسلمني رسالة طلب مني الا اقراها الا بعد ان اصل الى مكان عملي ، لانها عبارة عن رسالة ضمنها رايه في طباع الناس والنهاية القصوى التي يمكن ان تصل اليها الانسانية ، وافهمني بان الموضوع شائك ويستلزم الا اقراه الا بعد ان استريح في مكان وارف ظليل .

وشعرت برغبة شديدة لان اقبل يد رائف بك بدلا من ان اصافحها، وقلت له كلمة ارتجالية قدمته فيها على ابي الحقيقي واضفت بان جهاز الحكومة هو الحارس الامين وانه لولا سلطان القانون لكان الناس عبارة عن حركات طائشة ضد بعضها .

ركبت دراجتي وعدت بطريق جادة الخندق . كان كل شيء قد عاد الى الحالة الطبيعية بعد ان مر الباندیت نهرو ..

وكانت خواطري طيلة هذه الفترة متعلقة بالرسالة الانسانية التي خصني بها سيادة رائف بك وضمنها عصارة قلبه ، وجوهر تفكيره والتي كانت نتيجة لاهتمامي في موضوع مكافحة الغش والرشوة .

وما ان وصلت مكان الورشة حتى حدق بي الياس وابو جان واحمد سمان وابو وحيد .. ولكنني لم أكترث بهم ، لانني كنت مطمئنا الى ان كل شيء قد اتخذ طريقه القانوني .

ودخلت بيتا مصنوعا من تنك التوتياء ، فشعرت بحرارة شديدة ، ومع ذلك فقد احسست بالميل لقراءة الرسالة ، فما ان فضضتها حتى وقعت عيناي على شيء اذهلني ، وقرأت بصوت يخنقه الغيظ ..

« .... ديوان الاوراق ....

الرقم ....

« الى الموظف الوكيل السيد . مليح الشيخ المحترم .

نظرا لحدوث طوارىء مالية على ميزانية الاعمال التعهدية ، رأينا تسريحكم من وظيفتكم الموقتة .

رئيس البلدية

التوقيع

ـ صورة الى الديوان

ـ صورة الى الاضبارة والذاتية

ـ صورة الى السيد مليح الشيخ

ـ صورة الى المفتشية .

ركبت دراجتي وعدت في الطريق المزدحم وانا اتحاشى ان اصدم احدا من الناس .

حلب

عبد الرحمن البيك